الفصل الرابع

الغلو فى خصائص العربية

obeikandl.com

obeikandl.com

الغُلُوُّ فى خصائص العربية

تشريف للغة العربية ما بعده تشريف أن ينزل بها القرآن الكريم، بلسان عربى مبين، غير أن هذا جعل علماء العربية ينظرون إليها نظرة تقديس وإجلال ولا عيب فى هذا إلا ما جَرَّهُ عليهم من مغالاة أساءت إلى العربية فى كثير من الحالات.

فقد نظروا إلى ماعدا العربية على أنه رطانات واهملوا دراسته ففوتوا على العربية نفعاً كبيراً كان يمكن أن تناله لو أنهم درسوا اللغات المحيطة بها والمتصارعة معها أو أخواتها الساميات بالإضافة إلى أنهم أهملوا لهجات القبائل العربية التى تتصل بأى منها(١).

بل وحرموا على أنفسهم القياس فما جاء : «ليس لنا اليوم أن يخترع ولا أن نقول غير ما قالوه، ولا أن نقيس قياسا لم يقيسوه لأن فى ذلك فساد اللغة، وبطلان حقائقها، ونكتة الباب أن اللغة لا تؤخذ قياساً نقيسه الآن نحن»(٢) ودعاهم ذلك إلى الوقوف فى وجه التطور اللغوى، وفوتوا على أنفسهم دراسة تاريخ اللغة فى مراحلها المتعاقبة، ولا يستطيع اللغوى أن يتحكم فى اللغة بقوانين ضد سننها يفرضها عليها خارجة عن طبيعتها، واللغة أداة مرنة مطواع تتفاعل مع حاجات الجماعة اللغوية المتعاملة بها وتعبر بألفاظها الدقيقة الموحية عن حاجاتهم مهما تشعبت.

(١) وأصدروا أحكاماً غير مدروسة فقالوا :«إن العربية أوسع اللغات وأشرفها وأفضلها» (أنظر : الصاحبى لإبن فارس) كما جاء مثلا فى الصاحبى أيضاً وهو بمعرض الرد على دعوى أن للأعاجم شعرا: «بل الشعر شعر العرب ديوانهم وحافظ مآثرهم ومقيد أحسابهم». وجاء أيضاً : «إن العرب قرأوا شعر الأعاجم فوجدوه قليل الماء نزر الحلاوة غير مستقيم الوزن» (الصاحبى، ص ٤٠، طبعة بيروت).

(٢) الصاحبى لإبن فارس؛ والفهرست لإبن النديم.

وإقرأ : ما كتبه إبن النديم من أن العرب امتنعوا عن الزيادة فى اللغة بعد بعث النبى صلى الله عليه وسلم.

ولأن العربية هى لغة الوحى الإلهى دفع ذلك بعض علمائها إلى العلو فى خصائصها فعلى نحو ما صنع اليونانيون حيث خصوا لغتهم بالمناسبة الطبيعية بين الألفاظ ومدلولاتها فقد حاول ذلك بعض علماء العربية، وإن كان من بين علماء العربية من رأى رأيا علمياً دقيقاً وعالج الأمر فى موضوعية بعيدة عن الهوى.

ناقش أفلاطون فى محاوراته المسماة (Cratyllus) أصل الكلمات وناقش العلاقة بين الكلمات والأشياء التى تسميها وبحث عن طبيعة تلك العلاقة أهى ضرورية طبيعية، أو ثمرة اصطلاح الجماعات.

ومن قبل تساءل اليونانيون عن ماهية اللغة وأصلها، وماهية الكلمة، وعن العلاقة بين الكلمة وما ترمز إليه.

وقد ذهب Prodicus وسوفسطائيو القرن الخامس قبل الميلاد إلى أن تعلق المعنى بالكلمة تعلق طبع - لا اصطلاح - أما الرواقيون أنصار زينون فكانوا يردون كل شئ إلى المنطق(١).

ويعلق بلومفيد Bloomfield فى كتابه Language على محاورة Cratyllus التى تناقش أصل الكلمات وتناقش العلاقة بين الكلمات والأشياء التى تسميها يقول :

إن هذه المحاورة تعطينا لمحة عن مسألة طال فيها الخلاف بين القياسيين Analagists وأصحاب النشذيذ Anamalists فالأول يرون اللغة فى أساسها طبيعية (Natural) مطردة القواعد (Rugular) منطقية (Logical) .

---

(١) علم اللغة (مقدمة)، ص ٣٤٨، وأنظر : قضايا لغوية.

والآخرون يشيرون إلى الشواذ الملحوظة فى اللغة وينكرون هذا، والقياسيون يتتبعون أصل الكلمات ومعناها بالنظر فى أشكالها وسمو هذا الاشتقاق (Etymology)(١).

ويعترض بلومفيد من وجهة نظر الدراسة اللغوية الحديثة على هذه النظرة ويناقش الأمر مناقشة علمية : ويمثل بلومفيد بأمثلة من اللغة الإنجليزية فيقول : كلمة (Blackhbird) تتكون من الناحية الاشتقاقية من Bird, Black وهى تطلق على نوع من الطيور يسمى هكذا من أجل لونه الأسود وتلك تسمية صادقة حقاً على هذا النوع من الطيور فهى طيور وهى سوداء.

ويقول بلومفيد أيضاً : إنه كان من الممكن أن يستنتج اليونانيون أن ثمة علاقة بين كلمة Goose Berry وكلمة Gosse علماً بأنه لا علاقة بينهما سوى الشبه فى الشكل فالأولى معناها ثمرة من فصيلة التوت والكلمة الثانية تطلق على الأوزة. وعلى الرغم من أن للكلمتين صورة واحدة فالثانية صورة الأولى ولكن لا علاقة بينهما.

ويضيف بلومفيد إن كثيراً من الكلمات الإغريقية مثل الكلمات الإنجليزية على نحو ما رأينا تستعصى على هذا التحليل الذى يوجد العلاقة بين الكلمة ومعناها فمثلا كلمة Early ومعناها مبكرا تنتهى بما تنتهى به كلمة Manly بمعنى رجولى فهل هناك علاقة من الناحية الاشتقاقية بينهما فكلمة Manly مكونة من Man مضاف إليها اللاحقة Ly . بينما الكلمة الأولى إذا طبقنا عليها هذا المبدأ وجردناها من اللاحقة (Ly) تصبح غامضة ولا تعين على تفسير معنى هذه الكلمة.

---

(١) Bloomfeeld, Language P. 4, 5, 6.

وكذلك كلمة (Woman) تشبه (Man) ولكن من الناحية الاشتقاقية لو فصلنا (Man) عن (Wo) غامضا لا يعبر على تحديد معنى الكلمة.

غير أن اليونان وتلامذتهم الرومان كانوا يلجئون إلى الحدس والتخمين فى مثل هذا فمن ذلك مثلا قولهم إن الكلمة اليونانية (Lithos) حجر مشتقة من العبارة (Lain-theein) بمعنى الحجرى الكثير لأن هذا ما تفعله الحجرة.

ثم يعلق بلومفيلد على هذا بقوله : إن هذه الاشتقاقات على أى حال ترينا أن اليونان أدركوا أن الصور الكلامية تتغير على مر العصور.

ومن أعمال بلومفيلد وأقواله يتضح أن مثل هذه الدراسة لا تلقى عناية من الدرس اللغوى الحديث.

ومعلوم أن الدراسة اللغوية الحديثة لا تولى مثل هذه المباحث عنايتها على نحو ما عرض لها بلومفيلد.

ولكن من علماء العربية القدماء من فتنوا باللغة العربية وذهبوا مذاهب قريبة من هذا وقد خلفوا من التراث اللغوى العربى مباحث على تلك الشاكلة تنبنى عن عبقرية وقد أورد السيوطى نماذج وأمثلة تحت عنوان مناسبة الألفاظ للمعانى وناقشناها فى كتابنا مبحث فى قضية الرمزية الصوتية.

فعبقريتهم برعت فى العربية وبها فتلك أصالة تعد من مجالات إبداعهم.

ولإبن جنى فى هذا الميدان جولات بينا سبقه فيها للمحدثين(*).

(*) أنظر فى ذلك كتابنا مبحث فى قضية الرمزية الصوتية نشر دار المعارف.

ففى خصائصه بابان كاملان لهذه الظاهرة :

باب فى إمساس الألفاظ أشباه المعانى(١).

وباب فى قوة اللفظ لقوة المعنى(٢).

ومما يقوله فى الباب الأول. فأما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث فباب عظيم واسع ونهج متلئِّبٌ عند عارفيه مأموم. وذلك أنهم كثيراً ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر بها عنها فيعدلونها بها ويحتذونها عليها، وذلك أكثر مما نقدره، وأضعاف ما نستشعره(٣):

ومن الأمثلة :

خضم لأكل الرطب - وقضم لأكل اليابس - فقد اختار العرب الباء لرخاوتها للرطب والقاف لصلابتها لليابس حذوا لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث - ومنها أيضاً :

النضح للماء ونحوه، والنضخ أقوى من النضح فجعلوا الحاء لرقتها للماء الضعيف والخاء لغلظها لما هو أقوى منه(٤).

ومنها أيضاً : الوسيلة والوصيلة : فالوصيلة أقوى معنى من الوسيلة فجعلوا الصاد بقوتها للمعنى الأقوى والسين لضعفها للمعنى الأضعف(٥)، ومنها : القسم والقصم فالقصم أقوى من القسم لأن

---

(١) الخصائص، ج٢، ص ١٥٢.

(٢) الخصائص، ج٢، ص ١٥٧.

(٣) السابق، ص ١٥٣. وإقرأ :أمثلة متنوعة حتى ص ١٥٧.

(٤) السابق، ص ١٥٨.

(٥) السابق، ص ١٥٨.

القصيم يكون معه الدق وقد يقسم بين الشيئين فلا ينكأ أحدهما لذلك خصت بالأقوى الصاد وبالأضعف السين(١). وكل ذلك يدخل فى نظرية الفونيم على نحو ما أوضحنا فى كتابنا مبحث فى قضية الرمزية الصوتية.

كما يربط ابن جنى بين المصادر ودلالاتها ومما يراه أن المصادر الرباعية تأتى للتكرير مثل : الزعزعة والقلقلة ، والصلصلة والقعقعة، والصعصعة والجرجرة والقرقرة.

ومن رأيه أيضاً أن مصادر الصفات التى على وزن (الَقَعلَى) تأتى دلالة على السرعة مثل : البشَكَى ، والجَمَزَى ، والوَلَفَى.

فجعلوا المثال المكرر للمعنى المكرر، والمثال الذى توالت حركاته للأفعال التى توالت الحركات فيها(٢).

ويقول ابن جنى صراحة : إنهم لما جعلوا الألفاظ دليلة المعانى فأقوى اللفظ ينبغى أن يقابل قوة الفعل. والعين أقوى من الفاء واللام لأنها واسطة لهما ومكنونة بهما فصارا كأنهما سياج لها، ومبذولان للعوارض دونها، ولذلك نجد الإعلال بالحذف فيهما دونها(٣) فتضعف العين للتقوية نحو قطَع وفتَح... إلخ.

ويرى ابن جنى أن بعض الأصوات والحروف تزاد لزيادة المعنى فى الأفعال والأسماء ويضرب المثل بقوله تعالى : أخذ عزيز مقتدر، ويقول إن مقتدر أوفق من قادر من حيث تفخيم الأمر وشدته(٤).

---

(١) السابق، ص ١٥٨. وقد أورد السيوطى نماذج وأمثلة متنوعة فى هذا الصدد. أنظر ص ٦١.

(٢) السابق، ص ١٥٣.

(٣) السابق، ج٢، ص ١٥٥.

(٤) الخصائص لإبن جنى، ج٣، ص ٢١٤، ٢٦٥، ٢٦٦.

ويقول ابن جنى : إذا كانت الألفاظ أدلة المعانى ثم زيد فيها شئ أو جبت القسمة له زيادة المعنى به، وكذلك إن انحرف به عن سمته وهدبته كان ذلك دليلا على حادث متجدد له(١) ويدخل كل هذا تحت عنوان البنيات الشكلية على نحو ما أوضحنا فى السابق.

والأكثر من ذلك أن ابن جنى يجعل أصوات المادة الواحدة مهما اختلفت تراكيبها تعبر عن نفس المعنى.

فهو مثلا يجعل مادة (جبر)(٢) أى أصوات الجيم والباء والراء مهما اختلف ترتيبها تعبر عن معنى القوة والشدة :

«جبرت العظم والفقير إذا قويتهما – والجبروت القوة – والجبر الأخذ بالقهر والشدة – ورجل مجرب إذا مارس الأمور فاشتدت شكيمته، ومنه الجراب لأنه يحفظ ما فيه والشئ إذا حفظ قوى واشتد – ثم منه الأبجر والبجرة وهو القوى السرة.

ومنه البرج لقوته ومناعته – كذلك البرج هو نقاء بياض العين. وصفاء سوداها مما يكسبها قوة. ومنه رجبت الرجل إذا عظمته وقويت أمره. ومنه شهر رجب لتعظيمهم إياه عن القتال. ومنه الرجبة وهو ما تسند إليه النخلة لتدعيمها وتقويتها(٣).

وقد سقنا هذا المثل الذى استشهد به الدكتور إبراهيم أنيس لنسوق من بعده تحليله له وتعليقه عليه وها هو ذا :

---

(١) السابق، ج٣، ص ٢٦٨.

(٢) استشهد بها الأستاذ الدكتور/ إبراهيم أنيس وعلق عليها فى كتابه من أسرار اللغة لذلك سقناها.

(٣) أسرار اللغة، ص ٤٩.

«إن كان ابن جنى قد استطاع فى مشقة وعنت أن يسوق لنا للبرهنة على ما يزعم بضع مواد من كل مواد اللغة التى يقال : أنها فى جمهرة ابن دريد تصل إلى أربعين ألفاً، وفى معجم لسان العرب تكاد تصل إلى ثمانين ألفاً».

وابن جنى ممن يؤمنون إيماناً قوياً بوجود الرابطة العقلية المنطقية بين الأصوات والمدلولات، أو ما يسميه بعض المحدثين بالرمزية الصوتية(١).

بل لقد غالى ابن جنى فى هذا ومعه الثعالبى صاحب فقه اللغة إذ جعلا مجرد الاشتراك فى أصلين فقط من الأصول الثلاثة دليلا على الاشتراك فى المعنى العام لبعض الكلمات. فيرى أن المعنى العام للتفرقة يكون بصوتى الفاء والراء. والمعنى العام للقطع يكون بالقاف والطاء.

وغير ذلك من تخيلات وتأملات تشبه أحلام اليقظة عند رجل اشتد ولعه وإعجابه باللغة العربية فتصور فيها ما ليس فيها وأضفى عليها من مظاهر السحر ما لا يصح فى الأذهان ولا تتصف به لغة من لغات البشر»(٢).

ويرفض البحث اللغوى الحديث هذا كله وإلا «فعليه أن يجب على هذا أن نتصور نوعاً من الارتباط بين حروف الفعل أدرك وحروف الفهم فهم لأن لكل منهما نفس الدلالة.

كما يترتب على ذلك أيضاً أن ننكر من اللغة تلك المئات من الكلمات التى اشتركت لفظاً واختلفت معانيها اختلافاً بيناً»(٣).

---

(١) إقرأ : من أسرار اللغة للدكتور إبراهيم أنيس من ص ٤٦ وما بعدها. أنظر مناقشتنا لهذه القضية فى كتابنا الرمزية الصوتية (السابق).

(٢) من أسرار اللغة، د. إبراهيم أنيس، ص ٥١.

(٣) السابق، ص ٤٦.

والحق أن ابن جنى أخّاذ فى استشهاداته فقد مارس العربية ومرن عليها وأخذ يربط بين المعنويات فيها والمحوسات ومعلوم أن المعنوى متطور عن الحسى وبراعة ابن جنى فى إقامة العلاقة بين الأمور التى ارتبطت بالحواس فى كثير من المعانى وبين المعانى المجردة.

ولنا أن نتساءل إذا كانت "Lithos" ترتبط دلالتها بمعنى الحجر عند اليونانيين.. على نحو ما رأينا، وإذا كانت كلمة اذغاغ إذ ما سمعها الفارسى يقول أجد فيها صلابة وأجدها الحجر، وإذاكانت كلمة الحجر إذا ما سمعها العربى أشارت أصواتها إلى معناها وهو الحجر والصلابة فإذغاغ وحجر، Lithos كل واحدة منها فى لغتها توحى بمعناها. فما معنى هذا ؟!

معناه أن الأمور المحسوسة ارتبطت فى أذهان أصحاب اللغات بالأمور المعنوية فاستقرت تصورات فى ذهن كل صاحب لغة وأصبح يخيل له أن اللفظ يشع إيحاءه على المحسوس إلى درجة أنه يخلط بين حَدّى الحديث اللغوى (اللفظ والمعنى).

ومن هنا فلا عجب إذا وجدنا أبحاث اللغويين فى هذا الميدان تظلل بظلال منهجهم وأن يتجهوا فى بعض التفسيرات اتجاهات ميتافيزيقة قد تأخذ الطابع الفلسفى فى بعض الحالات ما جاء عند ابن جنى أيضاً.

ومن الأمثلة على ذلك ما جاء عند ابن جنى أيضاً :

يقول : كأنهم توهموا فى صوت الجندب استطالة ومد فقال : صر وتوهموا فى صروت البازى تقطيعاً فقالوا : صرصر(١).

---

(١) الخصائص، ج٢، ص ١٥٢.

وقال سيبويه ومن المصادر التى جاءت على مثال واحد حين تقاربت المعانى قولك : النزوان – والنقروان والقفزان.

وإنما هذه الأشياء فى زغزغة البدن واهتزازه فى إرتفاع ومثله العسلان والزنكان.

وقد جاء على فُعال نحو : النُّزاء – والقُماص – كما جاء على الصوت نحو الصُّراخ والنُّباح – لأن الصوت قد تكلف فيه من نفسه ما تكلف من نفسه فى النزوان ونحوه ومثل هذا الغليان لأنه زغزغة وتحرك ومثله الغثيان لأنه تجيش نفسه وتثور ومثله الخطران واللمعان لأن هذا اضطراب وتحرك ومثل ذلك اللهبان والصخدان والوهجان لأنه تحرك الحر وتؤوره فإنما هو بمنزلة الغليان(١).

ويرى ابن فارس عن زيادة النون، أو الميم أنها تطرد زيادتها فى آخر المصدر للدلالة على زيادة المعنى نحو :

رعشن للذى يرتعش، وخلبن ، وزرقم للشديد الزرقة، وصلدم للناقة الصلبة والأصل صلد وشدقم للواسع(٢).

وعلى الرغم مما فى هذه الأقوال وغيرها من براعة أخاذة وحسن فى العرض إلا أن البحث اللغوى الدقيق لا يقره فالميم والنون التى استشهد بها ابن فارس على مصادر دلالة على زيادة المعنى تفسرها الدراسة المقارنة فى الساميات وتعرض على مناهج البحث اللغوى التاريخى(٣).

---

(١) الكتاب، ج٢، ص ٢١٨.

(٢) الصاحبى، ص ٧٠.

(٣) إقرأ : فقه اللغة المقارن للدكتور إبراهيم السلامواتى. وعلم اللغة العربية للدكتور محمود فهمى حجاز.

ومع ذلك يطيب لى هنا أن أعرض رأى لغوى عربى قديم :

يقول عبدالقاهر : «أعلم أن ها هنا أصلا أنت ترى الناس فيه فى صورة من يعرف من جانب وينكر من آخر، وهو أن الألفاظ المفردة التى هى أوضاع اللغة لم توضع لتعرف بها معانيها فى أنفسها ولكن لأن يضم بعضها إلى بعض فيعرف فيما بينها فوائد وهذا علم شريف وأصل عظيم. والدليل على ذلك أنا إن زعمنا أن الألفاظ التى هى أوضاع اللغة إنما وضعت ليعرف بها معانيها لأدى ذلك إلى ما لا يشك عاقل فى استحالة وهو أن يكونوا قد وضعوا للأجناس الأسماء التى وضعوها لها لتعرف بها حتى كأنهم لو لم يكونوا قالوا : رجل وفرس ودار لما كان يكون لنا علم بمعانيها وحتى لو لم يكونوا قالوا : فعل ويفعل لما كنا تعرف الخبر فى نفسه ومن أصله ولو لم يكونوا قد قالوا افعل لما كنا يعرف الأمر من أصله ولا نجده فى نفوسنا، وحتى لو لم يكونوا قدوضعوا الحروف لكنا نجهل معانيها فلا نعقل نفياً ولا نهياً ولا استفهاماً ولا استثناء»(١).

تلك نظرة عالم لغة يصدر فيما يقوله عن فهم لطبيعة اللغة وخبرة علمية بها فألفاظ اللغة فى أية لغة لم توضع لتعرف بها معانيها فى أنفسها ولا علاقة بالمرة بين اللفظ ودلالة وإن وجدت فلا قيمة لها وإنما العبرة عندما تضم الألفاظ بعضها إلى بعض فتعطى فوائد وذلك علم شريف علم التراكيب علم البناء اللغوى علم مبنى على أسس وله قواعد وقوانين تعرفها اللغات.

أما أن الألفاظ اللغوية المفردة وضعت لتدل على معانيها فذلك أمر فى غاية البساطة، ومستحيل أن يكون على مستوى لغة واحدة أو على مستوى اللغات المتعددة المتنوعة.

---

(١) الدلائل، ص ٤١٥.

والدليل على ذلك أن الألفاظ اللغوية تختلف من لغة إلى أخرى.

فالظروف تحتم على الجماعة اللغوية أن تخلق نوعاً ما من اللغة لأداء مطالب المجتمع وسد حاجات الحياة وتحقيق الاتصال والمصلحة على أى لون من ألوان اللغات، فكل جماعة تتطلب اتصالات ومعاملات وتحكمها ارتباطات ولتحقق مطلب التعامل وتسد حاجة الاتصال لابد أن تجد لنفسها مخرجا تحقق به هذه الأغراض.

فلو لم توجد كلمات مثل رجل وفرس ودار فى جماعة فيها هذه الأشياء وغيرها من الموجودات فى البيئة التى تتعامل معها تلك الجماعة فإنها تضع لنفسها ألفاظاً تدل بها عليها.

ومثله لو لم توجد كلمات أفعل ويفعل لبحثت لنفسها عن كلمات تحقق غرض الأمر والأخبار والنهى والنفى والاستفهام والاستثناء والإنكار وهكذا ولا علاقة بين هذه الألفاظ ومعانيها.

فاللغة لهذا ضرورة اجتماعية لا مفر منها ولا حياة لمجتمع بدون تلك الأداة التى تربط وحدته وتؤلف بين أفراد وتجمع بين شتات أغراضه وأهدافه.

«فاللغة تنشأ مع المجتمع الإنسانى وهى عنصر من عناصر تكوينه وأداة فعالة من أدوات تطوره ونموه ورقيه»(١).

واستمع هنا إلى قول عبدالقاهر أيضاً :

فليس نظم الحروف لتكوين كلمات بمقتضى معنى، ولا الناظم لها بمقتضى فى ذلك رسماً من العقل اقتضى أن يتحرى فى نظمه لها ما

---

(١) اللغة والنحو للدكتور حسن عون، ص٧.

تحراه، فلو أن واضع اللغة كان قد قال (ربض) مكان (ضرب) لماكان فى ذلك ما يؤدى إلى فساد»(١).

ومعنى ذلك أنه لا مجال فى الدرس اللغوى للبحث عن ارتباط لفظ بمعناه أو تفضيل لفظ على لفظ من حيث هو لفظ. فقد اتضح إتضاحاً لا يدع للشك مجالا وهو أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هى ألفاظ مجردة ولا من حيث هى كَلِمُ مفردة، وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها فى ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التى تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ(٢).

ومعنى هذا أن بين أعمال علماء العربية فى التراث التكامل العبقرى.

---

(١) دلائل الإعجاز لعبدالقاهر الجرجانى، ص ٤٠-٤١.

(٢) السابق، ص ٣٨.